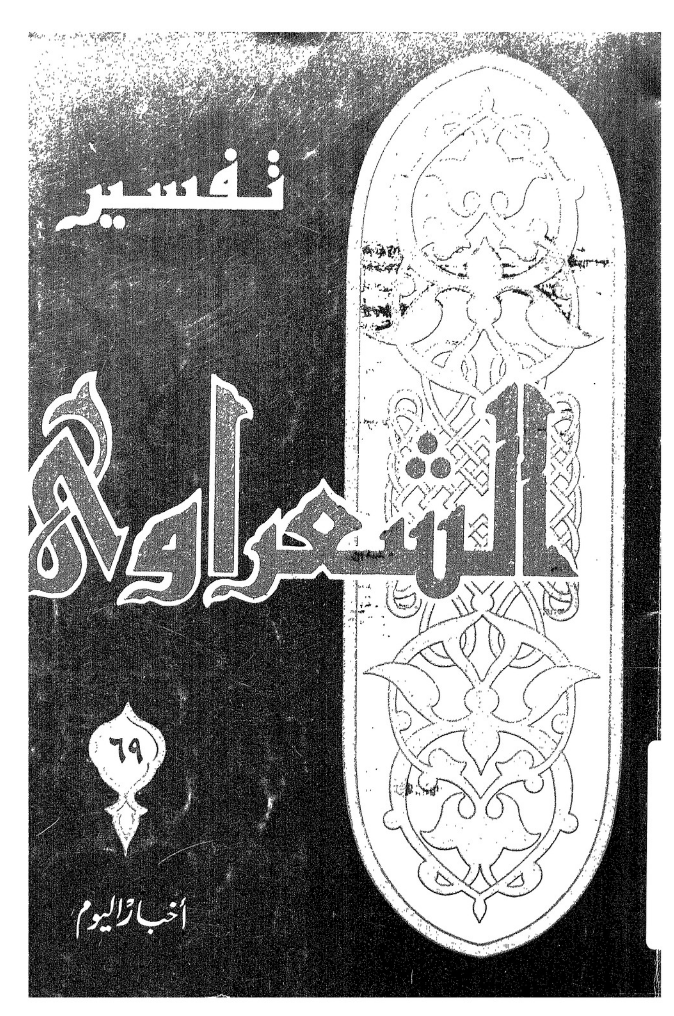


تفسير
الشعراوي
٦٩
أخبار اليوم

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر ؟ نقول: إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله ، يكون إقراراً من السامع .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ لماذا جاء الحق بكلمة ﴿هُوَ﴾ ، وكان يستطيع سبحانه أن يقول : "ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة" ولن يختل الأسلوب ؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتى بضمير الفصل ، مثلما نقول : فلان يستطيع أن يفعل لك كذا . وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل، لكن حين تقول : فلان هو الذى يستطيع أن ينجز لك كذا . فهذا يعنى أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذى يعنى الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة.

لذلك قال الحق: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ...(١٠٤)﴾ [التوبة]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غيرَ الله يقبل التوبة ؟ لا ، بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله. ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن، وجدنا أن ضمير الفصل أو ضمير الاختصاص هو الذى يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها؛ وهو واضح فى قصة سيدنا إبراهيم حين قال :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : "إنهم أعداء" ، بل جمعهم كلهم فى عصبة واحدة وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾.

و﴿إِنَّهُمْ ﴾ - كما نعلم - جماعة ، ثم يقول بعدها ﴿ عَدُوٌّ ﴾ وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شيءٌ واحد . وكان بعضٌ من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً منفرداً، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة فى قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل فى نوعين اثنين.

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل فى العداوة ؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيمُ وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أى : أن الله سبحانه ليس عَدُوّا لإبراهيم عليه السلام، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام . أما إن كان قومه يعبدون آلهة دون الله ، أى : لايعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثنى .

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ③ ﴾ [الزمر]

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا كلام دقيق محسوب . وأضاف:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ⑦⑧ ﴾[1] [الشعراء]

ولم يقل: " الذى خلقنى يهدينى" ، بل ترك "خلقنى" بدون "هو" وخَصَّ الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ؛ لأن "هو"

(١) إن الأفعال التى لا تصدر إلا عن الله سبحانه وتعالى ، وليس للمخلوق فيها دخل لم يأت بضمير التخصيص ، مثل قوله تعالى :﴿الَّذِي خَلَقَنِي ⑦⑧ ﴾ [الشعراء] أما إذا كان الفعل يدعى البعض أنه فاعله فإن الأسلوب القرآنى يرد عليه بضمير الاختصاص ؛ لأن الهداية من الله ، وليس للعبد دخل فيها إلا بالقبول والالتزام .

لا تأتى إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحدٌ يدّعى أنه خلق أحداً . فالخلق لا يُدَّعى ، ولذلك لم يقل " الذى هو خلقنى " .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذى لا يقول به أحد غير الله لا يأتى فيه الضمير . لكن الأمر الذى يأتى فيه واحد مع الله ، فهو يخصَّص بـ" هو " تأكيداً على تخصيصه لله وحده ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فليس لأحد أن يُدخل أنفه فى هذه المسألة ؛ لأن أحداً لم يدّع أنه خلق أحداً ، فمجىء الاختصاص - إذن - كان فى مجال الهداية بمنهج الحق ، لا بقوانين من الخلق . فمن الممكن أن يقول بشر : أنا أضع القوانين التى تسعد البشر ، وتنفع المجتمع ، وتقضى على آفاته ، ونقول :لا ، إن الذى خلقنا هو وحده سبحانه الذى يهدينا بقوانينه.

إذن : فما لا يُدَّعى فلا تأتى فيه (هو) ، أما ما يمكن أن يُدَّعَى فتأتى فيه (هو). وقوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتى له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك لله ؛ لذلك جاء بـ ﴿هُوَ﴾ ، فأنت إن نسبت كل رزق يأتى به أبوك، لانتهيت إلى مالم يأت به الأب ؛ لأن كل شىء فيه سببٌ للبشر ينتهى إلى ماليس للبشر فيه أسباب ، فكل شىء من الله ؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[الشعراء]

وخصص الشفاء أيضاً ؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذى يشفى ، وينسى أن الله وحده هو الشافى ، أما الطبيب فهو معالج فقط ؛ ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب ، فيموت بين يدى الطبيب؛ ولذلك يقول الشاعر عن الموت :

إنْ نَام عنْكَ فَأَىُّ طِبٍّ نَافِعٌ   أوْ لم يَنَمْ فالطِّبُّ مِن أذنَابه

.. فقد يعطى الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض. وجاء سيدنا إبراهيم بالقصر فى الشفاء لله ؛ حتى لايظن أحد أن الشفاء فى يد أخرى غير يد الله سبحانه. ثم يقول سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ... ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

ولم يقل : "هو" يميتنى ؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد يقول قائل : كان يجب أن يقول : "هو يميتنى" ، ونقول : انتبه إلى أن الموت غير القتل ، فالموت يتم بدون نقض للبنية ، والقتل لا يحدث إلا بنقض البنية ، ويضيف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

وأيضاً لم يقل : "هو يحيينى " ؛ لأن هذا أمر خارج عن أى توهم للشركة فيه ، فقد جاء بـ "هو " فى الأمور التى قد يُظن فيها الشركة ، وهو كلام بالميزان :

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء]

لم يأت أيضاً بـ "هو" ؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله [1] .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

إذن: فكل أمر معلوم أنه لا يشارك فيه جاء بدون «هو» ، وكل ما يمكن أن يُدَّعى أن فيه شركة يجىء بـ «هو» [١] .

وهنا يقول الحق: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وظاهر الأمر أن يقال :ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة «من» عباده ، ولكنه ترك «من» وجاء بـ «عن». والبعض يقولون: إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتى «من» بدلاً من «عن». ونقول: لا ، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغنى عن حرف آخر؛ لأن معنى التوبة ، أن ذنباً قد حدث ، واستوجب المذنب العقوبة ، فإذا قَبِل الله التوبة، فقد تجاوز الله عن العقوبة؛ ولذلك جاء القول من الحق محدداً : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ أى: متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة.

وهكذا جاءت «عن» بمعناها ؛ لأنه سبحانه هو الذى قَبِل التوبة ، وهو الذى تجاوز عن العقوبة.

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ صحيح أن الله هو الذى قال للرسول : ﴿ خُذْ ﴾ ولكن الرسول هو مناول ليد الله فقط ، و«يأخذ» هنا معناها « يتقبل » واقرأ قول الحق:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⟨١٥⟩ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ...⟨١٦⟩﴾
[الذاريات]

أى: متلقين ما آتاهم الله . ومثال هذا ما يُروى عن السيدة فاطمة حينما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفضة من المعادن التى لا تصدأ ، والفضة على أصلها تكون لينة

(١) وهذا يتلاقى مع ما ذكره القرطبى فى تفسيره (٣١٧٦/٤) : « قوله تعالى: «هو» تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : إن الله يقبل التوبة ؛ لاحتمل أن يكون قبول رسوله قبولاً منه ، فثبتت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبى ولا ملك ».

لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة. والمعدن الذى يعطى الصلابة هو الذى يتأكسد ؛ فتصدأ الفضة ؛ لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم. فلما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ سألها: ما هذا ؟ قالت: إنه درهم . واستفسر منها لماذا تجلو الدرهم ؟ فقالت: كأنى رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع فى يد الفقير تقع فى يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك ؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذى يأخذ الصدقة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ . كل هذه الآية نفى لمظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله ﷺ ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبِلَتْ ، ولكن الذى يقبل التوبة هو الله ، والذى يأخُذ الصدقات هو الله ؛ لأنه هو التواب الرحيم ؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك :

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إذن : هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلّنا رسول الله ﷺ ، وقالوا: خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا ؛ كل هذا جعل هناك حداً فاصلاً بين ماضٍ ندموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه

قد ولد الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم ستسيرون على مقتضى هذه التوبة أم لا ؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون فى الخفية بل ستكون فى العلن أيضاً، أما أموركم الخفية فسيعلمها الله ؛ لذلك قال: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾. أما الأمور التى تحتاج لفطنة [(١)] النبوة فالرسول ﷺ بفطرته سيراها بنوره فى سلوككم . أما الأمور الظاهرة الأخرى فسيراها ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تخادعوا المؤمنين ؛ لأن رسول الله بفطنته ونورانيته وصفائه وشفافيته سيعرف الخديعة ، أما إن كانت المسألة قد تتعمّى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذى يعلم.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ أى: اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بذنوبكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم فى المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو النيّات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه فى عاديات الأمور [(٢)] .

(١) لأن للرسول صفات تليق به وهى : العصمة والأمانة والبلاغ والفطانة .

(٢) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٨) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢١٤) وصححه وأقره الذهبى . وكذا أخرجه ابن حبان (١٩٤٢ - موارد الظمآن) .
وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » . روى عن خمسة من الصحابة - فيما وقفت عليه - وكلها لا تسلم من مقال . ومنها حديث أبى سعيد الخدرى عند الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : غريب . فيه مصعب بن سلام . وللحديث طرق وروايات أخرى .

وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثواباً أو عقاباً ، فهى ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائى يملك أن يثيب أو أن يعاقب. وأنكم راجعون إليه لا محالة. وإذا كنتم فى الدنيا تعيشون فى الأسباب التى يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصى ، فهناك عالم الغيب الذى يملكه الله وحده:

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

إذن: سيعامل التائب معاملة جديدة ، ومادام قد تاب ، فلعله بسبب الغفلة التى طرأت عليه فأذنب ؛ غفل عن اليوم الآخر ، فيحتاج إلى تجديد التذكير بالإيمان.

لذلك قال: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

قوله سبحانه : (فَسَيَرَى) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتحمة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا ؟

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أما عالم الغيب فانفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سوف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، وربنا عالم بالكل. وسبحانه لا يجازى على مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول:

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤)﴾ [الإسراء]

ولذلك يُنهى الحق هذه الآية بقوله:

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم فى السوارى ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن

جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السوارى ، وقبل منهم الصدقات؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، ولا اعترفوا بذنوبهم ؛ لذلك يجىء قوله الحق:

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع [1]. وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالهم ، وعندهم كل

---

(١) كعب بن مالك الأنصارى شاعر مشهور شهد بيعة العقبة الثانية وتخلف عن غزوة بدر وشهد ما بعدها ثم تخلف فى تبوك. توفى عام ٥٠ هـ فى زمن معاوية. (الإصابة فى تمييز الصحابة ٥/٣٠٩).

أما هلال بن أمية الأنصاري فقد شهد بدراً وما بعدها ، مات فى خلافة معاوية ، وهو الذى ظهر صدقه فى قذفه لامرأته بالزنا (الإصابة ٦/٢٨٩) . أما مرارة بن الربيع الأنصارى ، فهو صحابى مشهور شهد بدراً أيضاً (الإصابة ٦/٧٦) .

شيء . وقد قصّ واحد منهم حكايته [١]، وبيّن لنا أنه لم يكن له عذر : «وما كنت فى يوم من الأيام أقدر على المال والراحلة منى فى تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتى الغد ولا أتجهز ، حتى انفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾

و﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ أو «مرجَئون» والإرجاء هو التأخير . أى: أن الحكم فيهم لم يظهر بعد ؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله ﷺ لم ينشىء فى الدولة الإسلامية سجناً يُعزَل فيه المجرم ؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه فى مكان فهذا جائز . لكن النكال فى أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه.

وهكذا تتجلى عظمة الإيمان ؛ لذلك أصدر ﷺ أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى أقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد فى السوق أو فى المسجد.

وكان أحدهم يتعمد أن يصلى قريباً من النبى ﷺ ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبى له أم لا ؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أننى أحب الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم. وهكذا عزل رسول الله ﷺ المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع. وكذلك

(١) هو كعب بن مالك ، قال: « لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة . . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصغى (أى: أميل) فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول فى نفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد . . . فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو . . . » حديث طويل أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذى يصعب التحكم فيه. وحذر ﷺ زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتى الله بأمره.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

هذا بالنسبة لنا - إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم. لكن الحق سبحانه وحده هو الذى يعلم مصير كل واحد منهم.

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يَبت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكل ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم، وقوم أخّر الله الحكم فيهم ؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم فى ذاتهم ، ولمن يشهدونهم.

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليتأدبوا الأدب الذى يؤدبهم به المجتمع الإيمانى ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفى هذا التأديب.

وإذا أُدِّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرْأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب.

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومادام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخَّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتى قول الله فيهم: . .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين [1] ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : ﴿ومنهم﴾ ، ﴿وَمنْهُمْ﴾ و ﴿ويَحلِفُون﴾ ، ﴿ويَحلِفُون﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء «مناهم التوبة» ، مثل قوله :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [التوبة]

وقول الحق :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله الحق :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهم اثنا عشر من المنافقين اتخذوا مسجداً ضراراً ؛ مضارة لأهل مسجد «قباء» وكفراً ؛ لأنهم بنوه بأمر أبي عامر الراهب ، ليكون معقلاً له يقوم فيه من يأتي من عنده ، وكان قد ذهب ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبي ﷺ وتفريقاً بين المؤمنين الذين يصلون في قباء ، وإرصاداً وترقُّباً لمن حارب الله ورسوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة] أي : قبل بنائه ، ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ كذباً ما أردنا بالبناء ﴿ إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ من الرفق بالمسكين من المطر وحرارة الشمس ، والتوسعة على المسلمين ، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الجلالين] بتصرف .

وقال الحق عنهم أيضاً : ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ويقولون عنها : «محالف [1] التوبة» ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون - كما قلنا - متعارضون فى ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر. والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفيّاً ، ومجهوداً عقليّاً ، ومجهوداً حركيّاً ، فهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا كلاماً ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون الإيمان بألسنتهم فى قوله :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ... ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة]

أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم :

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) ذكرت مادة يحلفون فى سورة التوبة فى سبعة مواضع هى :
- ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة : ٤٢]
- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة : ٥٦]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة : ٦٢]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة : ٧٤]
- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة : ٩٥]
- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ..﴾ [التوبة : ٩٦]
- ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ..﴾ [التوبة : ١٠٧]

وكذلك وردت فى مواضع أخرى من القرآن :

ففى سورة النساء :
- ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء : ٦٢]

وفى سورة المجادلة :
- ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة : ١٤]
- ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة : ١٨]

وهكذا تُكْبَت ملكات لسانهم فى أن يقولوا وقت أن يكونوا مع المؤمنين، أما حين يكونون مع إخوانهم فهم يُنفِّسون عن ملكاتهم فيقولون قولاً مختلفاً، وهذه مسألة متناقضة؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾ [التوبة]

أى: لو أنهم يجدون مكاناً أميناً، لا يراهم فيه المؤمنون، لنفّسوا عن أنفسهم، وسبّوا النبى، وسبّوا المؤمنين، وقالوا ما يريدون، إلا أنهم لا يجدون هذا المكان، إنهم يتمنون لو وجدوا ملجأ يلجأون إليه، أو مغارة يدخلون فيها؛ لكى يُنفِّسوا عن أنفسهم؛ إذن: ﴿ لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [1]، لكنهم لا يجدون.

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ...(١٠٧)﴾ [التوبة]

نحن نعلم أن كلمة «مسجد» فى عمومها هى مكان السجود، وفى الخصوص هى مكان يحجز للسجود وللصلاة فقط، فإن أردت المعنى العام، فكل الأرض مسجد[2]، وتستطيع أن تصلى فى أى مكان فيصير

---

(١) جمح الفرس: انطلق يعدو لا يثنيه شىء، أو غلب راكبه فجرى كما يريد، قال تعالى: ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧] أى: فروا خوفاً وفزعاً إلى أى ملجإ لا يردهم شىء كالخيل الجامحة.

(٢) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى: كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لى الغنائم. ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة». متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين [1] ، وبعد ذلك تزاول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلى فى الفصل الدراسى أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو فى أى مكان تزاول فيه أسباب الحياة.

وبذلك يصبح المكان الذى تصلى فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال : «حجز ليكون مسجداً» ، فلا تباشر فيه أى عملية من عمليات الحياة إلا الصلاة وهو مسجد - بالمكان - ، ونحن نعلم أن أول مسجد أسِّس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن يُنفِّسوا عن أنفسهم فى صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناه بنو غُنْم بن عوف وأرادوا بهذا المسجد أن ينافسوا مسجد قباء.

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شيء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحى الفلانى مسجداً ، ولم نُقم نحن مسجداً ؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة ؛ صفة التنافس للحصول على سمعة أو تحيز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً ؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين.

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهرة صحية ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية فى الإيمان ؛ لأنك حين ترى المسجد وليس

---

(١) مكُنَ من باب كَرُمَ - مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت ومستقر قال تعالى : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] أى : عظيم ثابت المنزلة ومَكَّن له فى الشيء ثبته قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾[القصص: ٥٧] أى : حرماً ثابتاً ، وأمكنه من عدوه نصره عليه ، قال تعالى : ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١] .

فيه صفان مكتملان ، ثم يوجد بعده بعدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد ضرار[1] .

إذن : فـ«المسجد» بمعناه الخاص هو المكان الذى يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يزاول فيه شىء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبى ﷺ حين رأى واحداً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رد الله عليك ضالتك »[2] . لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن نية الاعتكاف لتكون فى حضرة ربك ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم فى مسائل الدنيا .

إذن : فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفِّسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة ، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا ، وجماعة يصلون هناك ، وإن قعدنا نحن نصلى فيه فنكون أحراراً ، ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكبوتين ، وغير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن ننفس عن أنفسنا .

فهم بَنَوْا المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلى معهم فى المسجد الجديد أثناء خروجه لغزوة تبوك فاعتذر رسول الله ﷺ وأوضح

---

(١) هذا يتلاقى مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٨٠) : « قال علماؤنا : لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً ، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثانى ، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه » . واللغة تقول : ضاره يضاره مضارة وضراراً مفاعلة بين اثنين ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾[البقرة: ٢٣٣] وإحداث مسجد كهذا ضار لجمع المسلمين ومدعاة للتفرق .

(٢) عن أبى هريرة قال قال ﷺ: « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » . أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

لهم: إننا فى حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلى فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يستوفوه وعده ، ويطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا بجبريل ينزل عليه بالآيات التى توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار ؛ لأن الله علم نيتهم فى ذلك.

ومعنى «الضرار» من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم فى كل الزمن ، وأن يبتعدوا عن التواجد مع المؤمنين فى المسجد الذى يصلى فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون فى مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه: ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إذن: فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام ؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً ؛ ولهذا أباح الحق أن تصلى الصلوات فى أى مكان ، وحتَّم أن نصلى جميعاً يوم الجمعة فى مكان واحد ؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقى كل واحد منهم بالآخر ؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ والإرصاد [1] هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم فى المكان الفلانى لرصد فلان ، أى: أنهم أناس يترقبون مجيئه بمكان ليفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب

(١) أرصد : أعد وجهز ، قال تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧] أى : أعدوه لأعداء الإسلام الذين كانوا ولايزالون يحاربونه ، فمسجد الضرار كان مأوى لمن يريد أن يكيد للإسلام .

الحب. والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقة فى عداء رسول الله ﷺ [1]، وهو الذى طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو «أبو عامر الراهب» وقد سماه رسول الله «الفاسق».

وأبو عامر هذا رجل تنصَّر فى الجاهلية ، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات ، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتى به ليدعو لهذا الدين ويترأس من يتبعونه ، وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصَّروا وصاروا فى المدينة ، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء فى المدينة وزالت رياسته ، عادَى رسول الله ﷺ ، حتى قال له فى أحد: ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلتكَ معهم. وحين تمكن الإسلام فى المدينة فر إلى مكة ، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف ، فلما آمن أهل الطائف ، لم يجد له وطناً فذهب إلى الروم «بالشام». ثم كتب للمنافقين أن أعدّوا مسجداً ؛ لأنى سآتى لكم بقوة من ملك الروم ؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة [2].

إذن: فهم قد بَنَوْا ذلك المسجد ضراراً ، وكفراً ، وتفريقاً ، وإرصاداً ، أى: ترقباً وانتظاراً لذلك الراهب الذى سيذهب إلى الشام ويأتى بجنود لمحاربة الله ورسوله. ورغم أنهم قد فعلوا ذلك ، فقد امتلكوا جراءة الطلب من رسول الله أن يصلى معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلى

---

(١) من هذا ما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية فى غزوة أحد (٣/ ٨٠) : « وقع رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، وهم لا يعلمون ، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً » . انظر أيضاً تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧) .

(٢) قصة نفاق هذا الرجل وعدائه لرسول الله ﷺ مذكورة فى أسباب النزول للواحدى (ص١٤٩) ، وتفسير القرطبى (٤/ ٣١٨٣)وابن كثير (٢/ ٣٨٧ ، ٣٨٨) وسيرة ابن هشام (٣/ ٨٠) . وهو والد صحابى جليل هو حنظلة غسيل الملائكة ، استشهد يوم أحد وهو جنب فغسلته الملائكة .

فيه الناس ما دام رسول الله ﷺ قد صلى فيه ، وظنوا أن هذه المكيدة سوف تفلح ، ولكن الله الذى يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد.

وقد يتغافل رسول الله ﷺ عن المنافقين بعض الشيء لحكمة ؛ فهم قد أخذوا بالإسلام لوناً من الصحبة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب أصحابه[1] ؛ لذلك فرسول الله ﷺ كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره ؛ لذلك أراد أن يحمى الإسلام من لسان من لم يعلم . ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله ﷺ «مالك بن الدُّخْشم» و«عامر بن السكن» ، و«وحشىّ» قاتل حمزة، و«معن بن عدى» ليهدموا هذا المسجد ، وأن يجعلوا فى موضعه مكان «القمامة». وبذلك فُضِحَ المنافقون ، فأسرُّوها فى نفوسهم.

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرهه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لابد أن تضعه فى مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإضرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفوا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم. لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين فى العداوة للإسلام ؛ لذلك كان لابد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل ؛ لذلك أصبحوا خائفين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول:

(١) وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على ألا يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه ، وقد ورد هذا فى حديث جابر بن عبد الله أن عبد الله بن أبى قال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٩٠٥) ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٤) .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذونى . إنه بسلوكه إنما يدل على نفسه ، ويأتى القرآن فى سورة ثانية فيقول:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ... (٤) ﴾ [المنافقون]

وهم يتصرفون هكذا لأن الريبة تملأ أعماقهم [1]، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدبه ضرباً أو قتلاً.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ ، وكلمة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فيها إيحاء بأن لهم سوابق فى محاربة رسول الله بغرض أن يؤذوه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه يحميه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه ﷺ.

وفى هذا الأمر أمثلة كثيرة، فالقرآن حينما يقص على رسول الله ﷺ أحوال اليهود ويوضح له : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...(٦١) ﴾ [البقرة]

أليس هذا القول يدفع فى خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذى يمنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل، ويأتى قوله الحق:

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة عنهم: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴾ [التوبة: ١١٠] يقول ابن كثير فى تفسيرها : « أى شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً فى قلوبهم ».

﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا يعنى أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف. وهكذا طمأن الله رسوله ﷺ ، وبذلك كُبتت هذه الفكرة إن فكروا فيها [1].

وأيضاً حين يأتى القرآن بشىء فى نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوه بعد ، ويفضحهم القرآن بإعلان ما فى نيتهم ، ومن غبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن.

ويتمثل ذلك فى أحد المواقف التى يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم: إنكم سوف تحلفون ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون فى القرآن ، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا فى أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا...(١٤٢)﴾ [البقرة]

إنهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك فى قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ، فكيف يقولون نفس القول بعد أن نزل به القرآن ؟ لقد فعل اليهود ذلك ؛ وهم بهذا الفعل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا.

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية :﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : يـأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله ». أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٤٦) واستغربه ، وأخرجه أيضاً أبونعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣١٣) وصححه .

وهنا يقول الحق: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع. وهم قد أقسموا وقالوا: ما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولنيسر على المعذورين والمرضى، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه [1]، ولكن حكم الله ينزل ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

فهل قوله الحق: ﴿ لاَ تَقُمْ [2] فِيهِ أَبَدًا ﴾ معناه أن يظل المسجد قائما ولا تقام فيه صلاة؟ هل ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ صيغتها النهى، أى لا تُصَلِّ فيه، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقيم فيه صلاة أبداً؛ لأنه لن يكون له وجود؟

(١) قال ابن إسحاق في السيرة: «كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله ﷺ، إنَّا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلى لنا فيه، فقال: إنى على جناح سفر، وحال شغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه» [سيرة النبى لابن هشام ٤/ ٥٣٠].

(٢) قام يقوم: نهض معتدلاً دون عرج، ويستعار للاعتدال في السلوك والأخلاق، وقام بالمكان مكث فيه على أى حال مثل أقام، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ [البقرة: ٢٠] أى: توقفوا عن السير ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴿١٢﴾﴾ [الروم] أى: تقع وتتحقق، وقوله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾﴾ [الجن] أى: نهض واجتهد فى الدعوة إلى الله، وهنا النهى منصب على أن الصلاة لا تقام فيه؛ لأنه لن يكون له وجود.

إن قوله الحق سبحانه يعنى أن هذا المسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم تجد الله سبحانه يقول : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ إذن: فالمسألة ليست فى بناء المسجد ، ولكنها فيمن يدخل المسجد ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول [1] فقد أسس على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه منافقون يحبون أن يتقذروا ؛ لأنهم المقابل لمن يحبون أن يتطهروا.

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شىء تنبسط له النفس وتخفُّ لعمله.

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور ، فما طهوركم هذا ؟ قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، فقال رسول الله ﷺ: فهل مع ذلك من غيره؟»

وهنا قال أهل قباء: «لا ، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجى بالماء» [2] ، وكان الواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء الحاجة ؛ فيخفف من استخدام المياه ؛ لأن المياه كانت قليلة عندهم ، ثم يستخدم الماء بعد الأحجار [3] ليكمل ويتم نظافته ، وأضافوا : «وَلا نبيت على جنابة ، ولا نُصرّ على ذنب ، فإن غلبنا الذنب تعجّلنا التوبة».

﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ والحب هنا متبادل ، فلا شىء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو الشقاء بعينه . والشاعر يقول:

---

(١) هو مسْجد قُباء، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام، بنى قبل مسجد النبى ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٥٥) والدارقطنى فى سننه (١/ ٦٢) والحاكم فى مستدركه (١/ ١٥٥) (٢/ ٣٣٤) وصححه. قال الزيلعى: سنده حسن لكن فيه عتبة بن أبى حكيم ليس بقوى.

(٣) هى ثلاثة أحجار يستنجى بها من الغائط ، فعن عائشة أن النبى ﷺ قال : « إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليستطب بثلاثة أحجار فإنها تجزىء عنه » أخرجه أحمد (٦/ ١٠٨ ، ١٣٣) وأبو داود فى سننه (٤٠) والنسائى (١/ ٤١ ، ٤٢) والدارقطنى فى سننه (١/ ٥٤) . فأهل قباء كانوا يضيفون الماء بعد هذه الأحجار الثلاثة حجراً بعد الآخر، وذلك لشدة حرصهم على الطهارة .

أنتَ الحبيبُ ولكنِّى أعوذُ بِكَ ... مِنْ أنْ أكُونَ حَبِيباً غَيْرَ مَحْبُوبِ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الجانبين فهو قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهى تأخذ قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنتهى بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهى بل تزداد اشتعالاً .

إذن : فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحب كلما رأى حبّاً من حبيبه رد عليه بحب ، فينمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو «الحب فى الله » ، فإذا رأيت حبّاً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن ؛ فاعلم أنه حب لغير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب فى الله .

والحق سبحانه يقول فى قصة فرعون وموسى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ⑧ ﴾ [القصص]

هم لم يلتقطوه ليكون عدواً لهم ؛ فهذا الاحتمال لو كان قد جاء فى بال آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم التقطوه ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تغفيل الكافرين به [1] ، فآل فرعون هم من يربون موسى ؛ ولذلك قال له فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⑱ ﴾ [الشعراء]

ولكن موسى عليه السلام لا يجامل فى الحق ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربّاه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار فى ميزان الحق ، وقد

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩]

تكون العداوة هينة لو كانت من جانب موسى وحده ، ولكن شاء سبحانه ألا تكون العداوة من جانب موسى فقط ، بل من جانب فرعون أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... (٣٩) ﴾ [طه]

ويقول سبحانه في مجال الحب المتبادل :

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ...(٥٤) ﴾ [المائدة]

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد [١] ، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات ؛ حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له ، وأنت حين تقرأ القرآن تجد قوله سبحانه وتعالى :

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ.. (٥٩) ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ... (٤٤) ﴾ [الأحزاب]

لم يأت سبحانه هنا بـ «ال» التعريفية ؛ لأنها لو جاءت لانحصر السلام في لون واحد. فأنت حين تقول: لقيت الرجل ، فأنت تحدد الرجل . لكنك إنْ قلت : لقيت رجلاً. فقد يكون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما. فإن جاء الاسم نكرة صار شائعاً ، أما إن كان بالتعريف فيكون محدداً.

والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال :

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾ [مريم]

---

(١) عن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

لأنه يريد أن يكثر السلام. وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم]

وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك: «سلام عليكم» ، وأنت ترد: «وعليكم السلام» ، لماذا ؟ لأن «سلام عليكم» معناها أن السلام منى يكون عليك وعلى غيرك ، أما ردُّك «وعليكم السلام» فيعنى أنك خَصَصْتَه بهذا السلام.

وهنا الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها زادت فى التحية حيث يقول الحق سبحانه:

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وهذا لأن الذى يحب أن يكون طاهراً دائماً ، قد أنس بفيوضات الله عليه [(١)] ، وما دامت ذراته كلها طاهرة من النجاسات المعنوية ومن النجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته فى كل لحظة، ولا تنتهى إمداداته على الخلق أبداً، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم.

إذن: فقد جاء الإيمان ليريحنا لا ليتعبنا، كما أنه سبحانه يصف نفسه[(٢)]:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... (٦٤)﴾ [المائدة]

---

(١) لأنهم تخلوا عن النجاسات حساً ومعنى ، وتحلوا بالطهر والعبادة ، فتجلى الله عليهم بفيضه ونوره.

(٢) وذلك أن اليهود وصفوا الله سبحانه بأنه بخيل لا ينفق فقالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ...﴾ [المائدة : ٦٤] . وقد أخرج الشيخان البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الفيض ، يرفع ويخفض». أخرجه البخارى (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣)

أى: يطمئن الخلق أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية. فصحِّح جهاز استقبالك ؛ بألا توجد فيه نجاسة حسيّة أو نجاسة معنوية ؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عنده فيوضات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال [1] ، ولا توجد به قذارة معنوية ، ولا قذارة حسّية ، ويتضح ذلك كله على ملامح وجهه ، وكلماته ، وحسن استقباله. وإن كان أسمر اللون فتجده يأسرك ويخطف قلبك بنورانيته . وقد تجد إنساناً أبيض اللون ، لكن ليس فى وجهه نور ؛ لأن فيوضات ربنا غير متجلية عليه.

وكيف تأتى الفيوضات؟ إنها تأتى بتنقية النفس ؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوضات الربانية ، فعليه أن يبحث فى جهازه الاستقبالى . وأضرب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعى ، فمحطات الإذاعة ترسل ، ومن يملك جهاز استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعى ، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعنى أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها.

ولذلك قال الحق:

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذى لا ينتهى ، والحديث الشريف يقول:

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [2] .

---

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً ووضعت طيباً» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى.

والليل قد ينتهى عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً ولا تنقبضان أبداً.

ثم يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا[1] جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

وقوله : ﴿أَفَمَنْ﴾ استفهام[2]، وكأنه يقول: وكيف تساوون بين مسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم ، ومسجد اتُّخذ للضرار وللكفر ولتفريق جماعة المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ؟

إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام فسبحانه واثق من أن عبده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ[3] بُنْيَانَهُ﴾ نجد كلمة « بنيان» وهى مصدر؛ «بنى» «بنياناً» ، لكن أطلق على الشيء المبنى ، فنقول : إن هذا البنيان جميل ، أو نقول مثلاً: إن طراز هذا البنيان فرعونى.

إذن: هناك فرق بين عملية البناء وبين الشيء الذى ينشأ من هذه

(١) على شفا جُرف : على حرف بئر لم تُبْنَ بالحجارة. هَارٍ : هائر متصدع أو متهدم. فانهار به : سقط البنيان بالبانى.

(٢) جاء الاستفهام هنا بالهمزة، وهى ترد لطلب التصور والتصديق، بخلاف هل، فإنها للتصديق خاصة، وسائر أدوات الاستفهام للتصور خاصة. (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/ ١٤١)، والاستفهام هنا استفهام معناه التقرير، أى تقرير أن من أسس بنيانه على تقوى من الله خير ممن أسس بنيانه على شفا جرف هار.

(٣) أسس بنيانه : أقامه على أساس قوى وعلى قواعد راسخة .

العملية ، وكلمة البنيان اسم جنس جمعى[1] ؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرده «بنيانة» مثلما نقول: «رمان» ، ومفرده «رمانة»، و«عنب» ومفرده «عنبة»، وأيضاً «روم» مفرده «رومى» فياء النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . إذن: يُفرق بين الواحد والجمع، إما بالياء وإما بالتاء.

وقد حكم سبحانه بألا يصلوا فى مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا فى المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء ، ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما تقبله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهنا ثلاث كلمات: شفا ، وجُرف ، وهَار. والشفا مأخوذ من الشَّفَة، و«الشفا» حرف الشيء وطرفه . وسكانُ سواحِل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، وتجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع ؛ لأنها الطرف الذى ليس له قاعدة وأسفله مَنْحور.

و«شفا جُرُف » أى طرف سينهار ؛ لأنه «هار» أى غير متماسك، فتكون الصورة أن الماء ينحر فى الساحل ، فيصنع شفة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها «شفا جُرُف».

وقد قال القرآن فى موضع آخر:

---

(١) اسم الجنس الجمعى: هو ما له مفرد يشاركه فى لفظه ومعناه معاً، ولكن يمتاز المفرد بزيادة تاء التأنيث فى آخره أو ياء النسب. قال الفيروز آبادى فى «بصائر ذوى التمييز» (ص ٢٧٧) : «البنيان، واحد لا جمع له . وقال بعضهم: جمع واحدته «بنيانة» على حد «نخلة ونخل» وهذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا...(١٠٣) ﴾

[آل عمران]

إنها الحفرة فى النار ، فكيف يكون شكلها ؟ لابد أنه مرعب.

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبار ليأخذوا منها الماء ، كانوا يضعون فى جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه ؛ لأن البئر إن لم يكن له جدار من حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال من على فوهته ، وهكذا تمنع الأحجار أى جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف هَار ، وهكذا كان مسجد الضرار، ينهار بمن فيه فى نار جهنم.

ويذيل الحق الآية : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهم كانوا ظالمين بالنفاق ؛ لذلك لم يَهْدهم الله إلى عمل الخير ؛ لأن الله لا يهدى الظالم. وسبحانه يقول فى أكثر من موضع بالقرآن:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ويقول عز وجل:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

والهداية - كما علمنا من قبل - قسمان: هداية الدلالة ، وهى لجميع الخلق ويدل بها الله الناس على طريق الخير، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه،

فهم أحرار ، فلله هداية شملت الجميع ، وهى هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهى هداية المعونة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً[1] فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

البنيان الذى بنوا هو مسجد الضرار ، وأرادوا به ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن يصلى فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة[2] وأن يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد ﷺ من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وأرسل ﷺ بعضاً من صحابته[3] ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه ﷺ بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكأنه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسّية .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسّية ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسّية ، فالإنسان قد يتحرز من

---

(١) ريبة : شكاً ونفاقاً فى قلوبهم .

(٢) ذريعة : أى وسيلة وتوصلاً لهدف معين .

(٣) منهم : مالك بن الدخشم ومعن بن عدى . أما مالك فقد شهد بدراً . و أما معن بن عدى بن الجد حليف الأنصار فقد شهد غزوة أحد . (انظر الإصابة فى تمييز الصحابة) .

النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التى تخامر [1] القلوب والعقائد والعواطف فهى التى تسبب للإنسان الشقاء.

وهنا يقول الحق: ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ فبعد أن هدم رسول الله ﷺ هذا البنيان وصار موقعه موضع القذارة، بقى أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن ينزل بهم رسول الله ﷺ العقاب ، وظلوا فى شك من أن يصيبهم رسول الله ﷺ بسوء، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت.

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثانى فى استبقاء الحياة، أما العضو الأول فى استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة ، فالمخ فى الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة.

وكذلك النخاعات التى تتحكم فى إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة. ونرى فى الحفريات أن الجماجم هى أبقى شىء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته.

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول: ليس لى رغبة فى الأكل ، وهذا ليس إلاّ تعبيراً علمياً لما حدث فى الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر

(١) خامر القلوب: خالطها وامتزج بها.

ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو «المخ» مصاناً.

ولذلك تجد القرآن حينما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ... ④﴾ [مريم]

أي: أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شيء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات في الذبول ؛ لأنها تعطي حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم تجد الساق تجف لأنها تعطي حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتي قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قوياً.

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهي الأشياء التي تنشأ من المحسّات ، وتتكون في الفؤاد[1] لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهي من الاقتناع بفكرة حتى تستقر في القلب.

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره في قلوبهم ، ولن ينتهي منهم أبداً إلا بشيء واحد هو : ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ والقلوب لا تتقطع إلا بالموت، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا.

(١) القلب هو مضخة الدم في شرايين الجسم وعروقه هذا تعريف المادة ، والفؤاد هو عقل القلب وهو محل العقائد الناشئة عن الإدراك ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ④٦﴾ [الحج] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ②④﴾ [محمد] ويطلق القلب على الفؤاد ، كما يطلق الفؤاد على القلب . فهما متلازمان . كالقلب يصل إلى الاعتقاد بالإدراك ثم يصير الإدراك انفعالاً ، وبعد الانفعال يكون الاختيار بمناقشة المسائل، ثم يكون الاختيار في البدائل وينتهي بالإقناع .

أو : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى: أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً.

وهذا تهديد لهم بأن مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من ذوات نفوسهم . ووجود الريبة فى نفوسهم ، يعنى أنها لن تجعلهم يستشرون فى الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شىء فى مكانه.

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أى أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوَّض الإيمان وعوّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يتُعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً.

فيقول الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ[1] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾

يقول العلماء: كيف يشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهو الذى خلق الأنفس وهو الذى وهب المال ؟ وقالوا : ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها ، بدليل أن المال مال الله ، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوضح له: إنه مالك بحيث إذا احتاجه أخ لك فى الدين ، فأنا أقترضه منك، ولم يقل: «أسترده». فسبحانه القائل:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة]

لقد احترم الحق الهبة للإنسان ، واحترم عرقه وسعيه ، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر الحياة ، ووهبهم الأنفس أعلن أنها ملكهم حقّاً ، ولكنه أعطاها لهم ، وحين يريد أخذها منكم فلا يقول : إنه يستردها بل هو يشتريها منكم بثمن ؛ ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام: «إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هى الجنة».

أى: اجعلوا ثمنها غالياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ . وكلمة ﴿اشْتَرَىٰ﴾ تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع. وإذا كان هذا ملكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع ، فلابد أن لهذا الأمر رمزية ، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان فى الولى على اليتيم أو السفيه ، فقد يصح أن يكون عندى

(١) الشراء والاشتراء : التملك بالمبادلة والعوض. وشَرَى يَشْرى : بمعنى باع وبمعنى اشترى ، والمشترى يعطى شيئاً ويأخذ بدله شيئاً ، فهو بائع وهو مُشْترٍ، وجاء شرى بمعنى باع فى قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ..(٢٠)﴾ [يوسف] أى : باعوه وجاء اشترى بمعنى أخذ السلعة ودفع الثمن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...(١١١)﴾ [التوبة].

شيء وأنا ولى على يتيم، فأشترى هذا الشيء بصفتى ، ثم أبيعه بصفتى الأخرى ، فالشخص الواحد يكون هو الشارى وهو البائع [١] ، فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشترى».

وما الثمن؟ يأتى التحديد من الحق: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن الذى لا يفنى ، ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التى لا نهاية لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت فى أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وحينما جاء الأنصار فى بيعة العقبة لرسول الله ﷺ قال له عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت.

قال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

ماذا قال رسول الله ؟ أقال لهم ستفتحون قصور بُصْرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل ﷺ شيئاً من هذا ، بل قال: «الجنة» ؛ لأن كل شيء فى الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا: «ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» [٢] وبمجرد

---

(١) هذا يجوز عند الإمام مالك بشرط ألاّ يحابى نفسه فى الشراء من مال اليتيم أو البيع إلى نفسه. انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ٣٣٤).

(٢) حينئذ نزلت هذه الآية. وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٠١) طبعة دار الشعب ، وعزاه لابن جرير الطبرى من مرسل محمد بن كعب القرظى ، وكذا أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩١)، والقرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٣).

عقد الصفقة العهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار [1]، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أن يبلغ الإسلام حظه وذروته ، وقد يقال: فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة . لكنه ﷺ حين قال: «الجنة» ، فمن مات يدخلها.

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتي من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ؛ لأن الذى يقدح فى وعود الناس للناس ، أنك قد تعدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفى به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ.

إذن: الوعد الحق هو ممن يملك ويقدر ، وحيّ لا يموت ، لذلك يقول فى هذه الآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

ويقول فى آخرها :

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ و«وَعْد» مصدر، فأين الفعل؟ إننا نفهمها: أى وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذى يملك وهو وعد حق. والقرآن حين يأتى بقضية كونية ، فالمؤمن يستقبلها بأنها سوف تحدث حتماً، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقّاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه:

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

هذه قضية قرآنية، حدثت من قبل و ثبتت فى الكون.

وماذا بعد أن اشترى الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم ؟ هنا يحدد الحق المهمة أمامهم:

---

(١) كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم : سعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، وأبو مسعود الأنصارى ، والبراء بن معرور ، وسعد بن عبادة ، والمرأتان هما : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو.

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و«قَاتَل» من «فَاعَلَ» ، و«قَتَلَ» غير «قَاتَلَ» . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن «قَاتَلَ» تقتضى مفاعلة ، مثلها مثل «شَارَكَ زيدٌ عَمْراً» . وكل مادة «فاعَلَ» و«تفاعَلَ» توضح لنا الشركة فى الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول. ولذلك تجد فى أساليب العرب ما يدلك على أن ملحظ الفاعلية فى واحد هو الغالب ، وملحظ المفعولية فى الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى.

فمثلاً: الرجل الذى سار فى الصحراء التى فيها حيَّات وثعابين ، ولم يُهِج الرجل أثناء سيره الحيّات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان ما دُمْت لاَ تهيجه فهو لا يفرز سماً ؛ لأن سم الثعبان لا يفرز إلا دفاعاً.

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سُمَّه، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة علي عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد «سالمها»، والشاعر يقول:

قد سَالَمَ الحيَّاتُ منه القَـدَما والأفْعُوان [1] والشُّجَاعَ الشَّجْعَما [2]

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلحظ أن «الأفعوان» منصوب ، وأن «الحياتُ» مرفوعة ، إذن : فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وجاء بالقدم منصوبة ، وكذلك الشجعم لما فى الحيات من المفعولية ؛ لأن الحيّات إذا سالمت القدمَ فقد سالمها القدمُ ، فكأنه قال : سالم القدمُ الحيّاتِ ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها.

---

(١) الأفعوان : ذكر الأفاعى . والمؤنث « أفعى » وهى الحية .
(٢) الشجاع الشجعم: الثعبان الضخم.

وهنا يقول الحق:

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ ﴾ فمن يقاتل ، إما أن يَقْتل وإما أن يُقْتَل ، وفى قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ،[1] ويقول: «فيُقْتَلُون ويَقْتُلُونَ»؛ فالمسألة صفقة بمقتضى قوله: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ لذلك يُقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفقة. وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ،[2] وإذا ما جاء المؤمنون فى جانب ؛ والكفار فى جانب آخر فالمؤمنون بنيان ، والحق هو القائل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ④﴾
[الصف]

فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقْتَلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن : فحين قتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقرأ قول الحق على قراءة الحسن ونقول: « فيَقْتُلونَ ويُقتَلُونَ ».

أو: أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا فى أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبوا جانب السلامة.

وكلنا نعرف قصة الصحابى الذى قال لرسول الله ﷺ: أليس بينى وبين الجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلونى ؟ قال له: «نعم» فأخرج الصحابى تمرة كانت فى فمه، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة[3].

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٤): «قرأ النخعى والأعمش وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المفعول على الفاعل. وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول».

(٢) عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦)، ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٥) واللفظ لمسلم.

(٣) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له: أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة. فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتل. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة، وهو وعد من الحق فى التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان.

وكل دين فى وقته له مؤمنون به، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه. إذن: فالقتال فى سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين، لكنها لم تكن عامة عند الرسل، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتدخل لعقاب أهل الكفر، وكان الرسول يبلِّغ، فإذا لم يستجبْ له قومه؛ عاقبهم الله سبحانه، والقرآن يقول:

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... (٤٠) ﴾[1] [العنكبوت]

ولم تأت مسألة القتال فى سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام[2] أن يقاتلوا فى سبيل الله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

إذن: فهذا وعد من الله فى التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام، وطالبوا بالقتال فى سبيل الله، وكذلك فى الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه

(١) هذه أربعة أنواع من العذاب: «**الحاصب**» وهى ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد». و«**الصيحة**» التى أخذت قوم «ثمود» فقضت عليهم. و«**الخسف**» الذى عاقب الله به قارون. و«**الغرق**» الذى قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام.

(٢) كان هذا بعد سيدنا موسى بما يقرب على الألف عام، والنبى هنا الذى طلب منه قوم بنى إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه فى سبيل الله هو: شمعون أو شمويل، قاله السدى ومجاهد ووهب بن منبه. وهو ما رجحه ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٠٠)

السلام ، وأخيراً فى القرآن للذين آمنوا بمحمد ﷺ [1] .

أو : أن هذا الوعد خاص بأمة محمد ﷺ ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشرى . وبهذا يكون الوعد فى التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد ﷺ ، فكأن التوراة قد بُشِّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل قد بُشِّر فيه بهذا الوعد للأمة المسلمة . والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه فى آخر سورة الفتح :

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

إذن : فالدين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً . ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً طوال الوقت ، ولو طُبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت ، ولكن شاء الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ ولذلك فالدين لا يطبع الناس على ذلة ولا على عزة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار .

وبذلك يُطوِّع المؤمن نفسه ، فهو شديد ورحيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشتد ، وحين

(١) قال القرطبى (٤/ ٣١٩٤) فى تفسير الآية : «هذا إخبار من الله تعالى أن هذا كان فى هذه الكتب ، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام» وقد قال عز وجل على لسان سيدنا موسى : ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة : ٢١] إلى أن قال : ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة : ٢٤] .

يتطلب منهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون ذليلاً بالنسبة لإخوانه المؤمنين يذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز.

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وتتابع صفات المؤمنين فى قوله سبحانه :

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم فى ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله.

ثم يصفهم سبحانه :

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم لا يريدون إلا رضاء الله وفضله ، والنور يشع من وجوههم؛[1] لأنهم أهل للقيم ، ويضيف سبحانه :

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

أى : أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيجىء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التى لا توجد فى اليهود ، هؤلاء الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقى أرواحهم بالقيم الدينية، فأنت إن نظرت إلى التوراة المحرفة

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن نبى الله ﷺ قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٦) وأبو داود فى سننه (٤٧٦٦). وقال بعض الصالحين: إن للحسنة نوراً فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس. انظر ابن كثير (٤/ ٢٠٤).

فلن تجد فيها أى شىء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية .

أما فى الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة ، والماديات فيها ضعيفة؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملاً تنتظم به الحياة ، قيماً حارسة ، ومادة محروسة ؛ فالعالم يفسد حين تأتى المادة فتطغى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية[1] تدافع عنها ، فيأبى القوى الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل فى البناء الاجتماعى .

إذن: فنحن فى حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم . وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية ، لذلك ستأتى أمة محمد وهى تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سُجَّد ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود .

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتى فى أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من المادة؛ بسبب أنكم انعزلتم عن الحياة وابتدعتم رهبنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة فى الحياة .[2]

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ[3] يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ...(٢٩) ﴾ [الفتح]

(١) جمع الإسلام بين عقل المادة بالتخطيط وعقل الروح بالتهذيب ، ومن هنا يكون الانسجام بين طاقة الروح وطاقة المادة ، وطاقة العقل ، فرسالة الإسلام هى عقل القيم ، يقول الحق ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

(٢) يقول سبحانه : ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد] .

(٣) شطأه: طرفه. يقال: أشطأ الزرع إذا نبت ونما. آزره: أزر الزرع وتأزّر: قوّى بعضه بعضاً. استغلظ فاستوى على سوقه: صار غليظاً وقويت واستحكمت نبتته .

ومن حق المسلمين أن يقولوا: أيها الكافرون ليست لكم مادة تطغون بها علينا؛ لأن الإسلام يريد من حركة حياتنا على ضوء منهجه فى الأرض أن تتوازن المادة مع القيم؛ لأن القيم هى التى تحرس الحضارة، والمادة إنما تحرس القيم، وحين يمتلك المسلمون القوة المادية فسيرتدع أى إنسان عن أن يطمع فى فتنة المسلمين فى دينهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال]

فالكفار إذا رأوك قد أعددْتَ لهم يتهيبون.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها، يقول الحق:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾

وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد من هو أوفى منه؛ لذلك يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وبذلك يطمئننا سبحانه على أن وعده محقق؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهَد ومُعَاهِد، والذى يخرج عن هذا الارتباط أمران:

الأول: ألا يكون صادقاً حين أعطى عهداً، بل كان فى نيته ألا يوفى، ولكنه أقام العهد خديعة حتى يستنيم له المعَاهَد.

والأمر الثانى: أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه، فهو كاذب.

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة؛ فسبحانه مُنزَّه عن كل ذلك، ولا أحد أوْفَى بالعهد من الله.

فقد يُطعن فى العهد والوفاء به عدم القدرة، لكن قدرة الحق مستوفية.

إذن: فالعهد الحقيقى إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامى ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؟ فالإجابة: لا أحد ؛ لأن الذى يقدح فى مسألة العهد الخُلف والكذب وغير ذلك.

والله سبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأن الخديعة لا تأتى إلا من ماكر ، وإذا سمع أى إنسان ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ ثم أدار فكره فى الكون ليبحث عن جواب ، فلا يجد إلا أن يقول : «الله» ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد. وما دام الوعد بالجنة ، فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعده حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة.

ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة]

فالنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ثم وعده الحق المبيَّن فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هى الاستبشار بما باعه المؤمن لله . فالإنسان - ولله المثل الأعلى - لا يسجل إلا ما يكون فى صالح قضيته، ولا يسجل للخصم ، فعندما يكون عندك صَكٌّ[1] على فلان ، فأنت الذى تحتفظ به وتحرص عليه؛ لأنه يؤيد حقك.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

والقرآن هو الحجة الكاملة الشاملة فى كل أمور الدنيا والآخرة، ومن فَرْط صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخَالَف ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذى صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذى خلقه الله لا يمكن أن

(١) الصَّك : الكتاب ، فارسى معرب . يقيد فيه الديون والأعطيات.

تخرج عن قضايا القرآن ؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾

قوله الحق : ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ مأخوذ من «البشرة»، وهي الجلد عامة، وإن كان الظاهر منه هو الوجه.

وحين يقول الحق سبحانه :﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق، وهذا قد يُقبضُ النفس فهذا فيه الموت ، وخسارة للمال ، وكان من الطبيعي أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف . ولكن ساعة يقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور. والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق، مع أنه هنا سيأخذ نفسه، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة.

إذن: قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ أي: فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً [(١)] .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ وهل يستبشر الإنسان بالبيع ؟ نعم ؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغنى عنه عادة، ويشترى ما يحتاج إليه، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً بباق.

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يخالفون العهد الذى أخذ عليهم ، تجد الواحد منهم

(١) وعلى المؤمن أن يكون له نصيب من هذا فى تعامله مع الناس، فعن أبى موسى قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٩) ومسلم (١٧٣٢) فى صحيحيهما.

يحتاج للمخالفة لأن وفاءه يتعبه. لكن الحق سبحانه ليس فى حاجة لأحد وهو غنى عن الجميع ، ولا يوجد أدنى مبرر لخُلْف الوعد أبداً.

وتأتى ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصفقة التى انعقدت بينكم وبين ربكم.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة فى عرف العقل الواعى ، كما تقول لابنك : «ذاكر لتفوز بالنجاح» وتقول للتاجر : «اجتهد فى عملك بإخلاص لتفوز بالربح».

إذن: فهناك «فوز»، وهناك «فوز عظيم» والفوز فى الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التى تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذى لا فوز أعظم منه [1].

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [2]

---

(١) وهذه طبيعة الإنسان التى تطمح نفسه دائماً إلى الخلود وخلود ما أنعم عليه به، وقد لمح إبليس فيه هذا فقال : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] . فإبليس يمنيه بالخلد وبالنعيم الذى لا يزول ولا يفنى.

(٢) التائبون : من الشرك ولم ينافقوا فى الإسلام. العابدون : الذين ذلوا خشية لله وتواضعاً . الحامدون : الذين حمدوا الله على كل حال فى السراء والضراء . السائحون : الصائمون . الراكعون الساجدون : المصلون . الحافظون لحدود الله : المنتهون إلى أمره (راجع تفسير الطبرى).

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة، فمن هم المقبلون عليها [١] ؟ إنهم التائبون ، والتوبة: هى الرجوع عن أى باطل إلى حق.

وعمَّ يتوب هؤلاء التائبون ؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة. نجد ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن: فالإيمان أمر فطرى ، والكفر هو الذى يطرأ عليه ، وقلنا من قبل: إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو الستر [٢] ،

(١) لمس فضيلة الشيخ هنا معنى هاماً فى تفسير هذه الآية ، فلن يقبل على الدخول فى هذه البيعة إلا من توافرت فيه هذه الصفات، ولكن ليس على سبيل الشرط، فقد ثبت فى السنة أن هناك من استشهد ولم يركع لله ركعة ، وكذلك جاء فى السنة أن الشهيد تغفر له ذنوبه مع أول قطرة دم (أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣١) وحسَّن إسناده المنذرى فى الترغيب (٢/ ١٩٤) وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية: هل هى متصلة بالآية قبلها أم منفصلة ؟ فاتصالها بها معناه أنه لن يدخل فى هذه البيعة إلا القليل النادر، أما انفصالها فمعناه أن هذه أوصاف للكمَلة من المؤمنين الأقرب لبيع أنفسهم وأموالهم فى مقابل الجنة. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٩٧) .

(٢) الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بأن لا يُعرف الله أصلاً ولا يُعترف به ، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقى ربه بشىء من ذلك لم يغفر له . . . فأما كفر الإنكار فهو كفر بالقلب واللسان. وأما كفر الجحود فهو أن يعترف الكافر بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس وأمية بن أبى الصلت ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] . وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أن يدين به حسداً وبغياً ككفر أبى جهل. وأما كفر النفاق فهو إقرار باللسان وكفر بالقلب. نقله ابن منظور فى اللسان (مادة: كفر).

فمن يكفر بالله - والعياذ بالله - إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطرأ الكفر فيستره ، ثم يأتى من ينبه فى الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التى طرأت على الفطرة.

و﴿التَّائِبُونَ﴾ : منهم التائبون عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة ، وأخذوا منهج الله الذى آمنوا به ، ومن هنا نشأت العبادة التى تقتضى وجود عابد ومعبود ، والعبادة تعنى الانصياع من العابد لأوامر ونواهى المعبود.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ والعبادة كلها طاعة تتمثل فى تطبيق ما جاء به المنهج من «افعل» و«لا تفعل» ، وقد يتدخل المنهج فى حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل فى هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها ؛ لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولى أمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذى يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح.

إذن : الأوامر والنواهى هنا نعمة ، كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة.

إذن : فالذين تابوا عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أى : منفذين الأوامر ، ومبتعدين عن النواهى ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهى ، ولكنهم يصدقون قوله ﷺ : «حُفَّت الجنةُ

بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات »[1]

حين تعرف أن العبادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن تحمد الله عليه ؛ وبذلك يدخل المؤمن فى زمرة الْحَامِدينَ.

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله فى بالك ، فلا يشغلك كونه عنه سبحانه ، وإياك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً فى بالك ، والحق سبحانه يقول :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾ [العلق]

لذلك يفكر المؤمن فى الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة فى بيت وأولاد وعمل.

و﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أيضاً لابد أن يستقبلوا كل قدر لله عليهم بالرضا ؛ لأن الذى يُجرى عليهم القدر - ما دام لم يأمرهم بما لم يقع فى اختيارهم - فهو حكيم ولا يُجْرى سبحانه عليهم إلا ما كان فى صالحهم. وبعد أن ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة ؛ ولذلك يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ... ۝ ﴾ [البقرة]

ويتابع الحق صفات المقبلين على الصفقة الإيمانية فيقول : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٣٩) عن أنس بن مالك. قال النووى فى شرحه لمسلم (١٧/ ١٧١) «فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادات ، والمواظبة عليها ، والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسىء ، والصبر عن الشهوات ونحو ذلك. وأما الشهوات التى حُفّت بها النار ، فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك ، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل فى هذه لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يقسّى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك ».

ومعنى «سائح» هو من ترك المكان الذى له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأنس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شىء ما ، قد يتعرض فيه للمخاطر ، والمؤمن إنما يفعل ذلك ؛ لأنه لا شىء يشغله فى الكون عن المكوِّن ، ويقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ...(١١)﴾ [الأنعام]

إذن : فالسياحة هى السير المستوعب ، والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب فى الأرض [1] ليبتغى من فضل الله .

إذن : فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهى خاصة بالذين يضربون فى الأرض ، وهم الرجال .

أما سياحة الاعتبار ؛ فهى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك فى وصف النساء :

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ...(٥)﴾ [التحريم]

إذن : ﴿سَائِحَاتٍ﴾ هنا مقصود بها سياحة الاعتبار ، أو السياحة التى تكون فى صحبة الزوج الذى يضرب فى الأرض .

وقيل أيضاً : إن السياحة أطلقت على «الصيام» ؛ لأن السياحة تخرجك عما ألفْتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما ألفْتَ من

(١) الضرب فى الأرض : السفر لطلب الرزق والتجارة . يقول سبحانه : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ (٢٠)﴾ [المزمل]

طعام وشراب وشهوة [١] .

إذن: القَدْرُ المشترك بين الرجال والنساء هو فى سياحة الاعتبار وسياحة الصوم.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أى: المقيمون للصلاة ، وقد جاء بمظهرين فقط من مظاهر الصلاة ، مع أن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود ؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة ، وأما القيام فقد يكون فى غير الصلاة ، وكذلك القعود . إذن: فالخاصيَّتان هما ركوع وسجود ؛ والحق يقول:

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي [٢] لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران]

أى: صلّى مع المصلِّين ، وهكذا نجد أن الركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة فى الصلاة.

ثم يقول سبحانه: ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو حيثية تخص الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس ، فالحق سبحانه يقول:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]

فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا

---

(١) قيل للصائم: «سائح» ؛ لأن الذى يسيح متعبداً يسيح ولا زاد معه إنما يطعم إذا وجد الزاد ، والصائم لا يطعم أيضاً فلشبهه به سمى سائحاً . نقله ابن منظور فى اللسان .

(٢) القنوت: أداء الطاعة فى خضوع وخشوع مع الإقرار بالعبودية لله .

المنكر فليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مزاول له [1]. إذن: فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، صلاح أو هدى مُتَعدٍّ من النفس إلى الغير ، بعد أن تكون النفس قد استوفَتْ حظها منه.

ويقتضى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن تعرف المعروف الذى تأمر به ، وأن تعرف المنكر الذى تنهى عنه ؛ لذلك لا بد أن تكون من أهل الاختصاص فى معرفة أحكام الله ، ومعرفة حدود الله حلاً وحُرْمة ، أما أن يأتى أى إنسان ليُدخل نفسه فى الأمر ويقول : أنا آمرَ بمعروف وأنا أنهى عن منكر ، هنا نقول له: لا تجعل الدين ، ولا تجعل التقوى فى مرتبة أقل من المهن التى لا بد أن يزاولها أهل فكر ومتخصصون فيها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ و«الحدود» جمع «حد» وتأتى الحدود فى القرآن على معنيين: المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر، وتلك يردفها الحق بقوله:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدَّ هذا الحد. أما المعنى الثانى: فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك: لا تتعداها، بل يقول سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧)﴾ [البقرة]

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بَشِّرْ هؤلاء

---

(١) عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء برجل فيطرح فى النار فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أى فلان ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم بلفظ مقارب (٢٩٨٩).

ويقول الشاعر:

لاَ تَنْهَ عَن خُلُقٍ وتأتى مثْلَهُ ... عَارٌ عليكَ إذا فعلْتَ عَظيمُ

الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذين قد يصلون أو يصومون ظاهراً. وكلمة ﴿وَبَشِّرِ﴾ و«استبشر» و«البشرى» و«البشير» كلها مادة تدل على الخبر السار الذى يجعل فى النفس انبساطاً وسروراً ؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وجهاً متهللاً تفيض بشرته بالسرور.

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر شغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر ؛ ومن حقوق هذه الأبوة على الأبناء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أَوْلَى من قرابة الدم ، وأَوْلَى من عاطفة الحنوّ والرحمة ؛ فالحق سبحانه وتعالى أَوْلَى بأن يكون الإنسان باراّ به من أن يكون باراّ بالأب الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه النسبَ فى الإسلام نفسه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾

قبل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لآبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله ﷺ ، فقال :﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ ، وإذا كان النبى ينهى ، فالمؤمنون من باب أَوْلَى ليس لهم الحق فى ذلك ؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم آباء النبى إن كانوا غير مؤمنين.

وكلمة ﴿ مَا كَانَ ﴾ تختلف عن كلمة «ما ينبغى» فساعة تسمع «ما ينبغى لك أن تفعل ذلك» فهذا يعنى أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن

تفعل ، ولكن حين يقال : «ما كان لك أن تفعل» ، أى : أنك غير مؤهل لفعل هذا مطلقاً .

ومثال ذلك أن يقال لفقير جداً : «ما كان لك أن تشترى ڤيديو» ؛ لأنه بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز ، لكن حين يقال لآخر : «ما ينبغى لك أن تشترى ڤيديو» أى : عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذى يجب أن يمنع الشراء . إذن : فهناك فَرْق بين نفى الإمكان ، ونفى الانبغاء .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

أى : ما كان [(١)] للنبى ولا المؤمنين أن يستغفروا للذين ماتوا على الشرك والكفر ، ولو كانوا أولى قربى . فهذا أمر لا يصح [(٢)] .

وحتى لا يحتج أحد من المؤمنين بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه جاء الحق بالقول الكريم :

---

(١) قوله : «ما كان» يأتى فى القرآن على وجهين :
- النفى : نحو قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا (٦٠) ﴾ [النمل] ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (١٤٥) ﴾ [آل عمران] .
- النهى : نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ (٥٣) ﴾ [الأحزاب] ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ (١١٣) ﴾ [التوبة]

(٢) مما جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : يا عم قل : لا إله إلا الله . كلمة أشهد لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب . فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فنزلت الآية : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) ﴾ [التوبة] . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤) .

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فقد وعد سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه ما ذكره القرآن:

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]

﴿حَفِيًّا﴾ أي: أن ربَّ إبراهيم يحبه وسيكرمه في استغفاره لأبيه [1].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ويأتي الحق سبحانه بالحيثية الموحية، بأن إبراهيم له من صفات الخير، الكثير جداً، لدرجة أن الله خالقه يقول فيه:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

أي: أن خصال الخير في إبراهيم عليه السلام لا توجد مجتمعة في إنسان واحد، ولا في اثنين ولا في ثلاثة، بل خصال الخير موزعة على الناس كلها، فهذا فيه صفة الأمانة، وثان يتحلى بالصدق، وثالث يتميز بالشهامة، ورابع موهوب في العلم، إذن: فخصال الخير دائماً ينشرها الله في خلقه، حتى يوجد تكافؤ الفرص بين البشر، كالمهن، والحرف، والعبقريات، والمواهب، فلا يوجد إنسان تتكامل فيه المواهب كلها ليصبح مجمع مواهب.

---

(١) حفياً: مبالغاً في الإكرام وإجابة حاجته على سبيل البر واللطف به. وقد جاء استغفار إبراهيم لأبيه في القرآن مرتين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء]. ولكن هذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله.

لكن شاء الحق أن يجمع لسيدنا إبراهيم عليه السلام خصال خير كثيرة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أى: فيه عليه السلام من خصال الخير التى تتفرق فى الأمة. وبعد ذلك يعطينا الحيثية التى جعلت من سيدنا إبراهيم أمة، وجامعاً لصفات الخير بهذا الشكل، فإن أعطاه الله أمراً فهو ينفذه بعشق [1]، لا مجرد تكليف يريد أن ينهيه ويلقيه من على ظهره، بل هو ينفذ التكليف بعشق، واقرأ قول الله سبحانه:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى: أتى بها على التمام، فلما أتمهن أراد الله أن يكافئه، فقال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (١٢٤)﴾ [البقرة]

فهو - إذن - مأمون على أن يكون إماماً للناس لأنه قدوة، أى أنه يشترك مع الناس فى أنه بشر، ولكنه جاء بخصال الخير الكاملة فصار أسوة للناس، حتى لا يقول أحد: إنه فعل الخير لأنه ملك، وله طبيعة غير طبيعة البشر، لا.. إنه واحد من البشر، قال فيه الحق سبحانه:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى: أسوة وقدوة، والأسوة والقدوة يشترط فيها أن تكون من الجنس نفسه فلا تكون من جنس مختلف، فلا يجعل الله للبشر أسوة من الملائكة؛ حتى لا يقول أحد: وهل أنا أستطيع أن أعمل مثل عمله؟ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى عرض هذه القضية:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء]

---

(١) العشق هنا أعلى مراتب الحب.

فحين تعجَّب بعض الناس [١] من أن ربنا قد بعث من البشر رسولاً أنزل الحق هذا القول وأضاف سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

فما دُمْتم أنتم بشر فلا بد أن يرسل لكم رسولاً منكم لتحقق الأسوة، لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

ولنَر كيف أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بعض التكاليف بعشق ، فلننظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ... (١٢٧) ﴾ [البقرة]

ومعنى رفع القواعد أى إيجاد البعد الثالث، وهو الارتفاع ؛ لأن البيت الحرام له طول وهذا هو البعد الأول ، وله عرض وهو البعد الثانى وبهما تتحدد المساحة . أما الارتفاع فبضربه فى البعدين الآخرين يعطينا الحجم ، وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البعد الثالث الذى يبرز الحجم ، وقد قال بعض السطحيين : إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى الكعبة، لا لم يبن الكعبة ، بل رفع القواعد التى تبرز حجم الكعبة ؛ بدليل أنه حينما جاء هو وامرأته هاجر ومعها الرضيع إسماعيل عليه السلام قال :

---

(١) جمع الله ذكر هؤلاء المتعجبين فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) ﴾ [إبراهيم] .

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ..(٣٧)﴾ [إبراهيم]

وهذا دليل على أن البيت كان معروفاً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد استقرت به هاجر وطفلها إسماعيل إلى أن كبر واستطاع أن يرفع مع أبيه القواعد ، ولذلك نقول : إن هناك فرقاً بين « المكان » و« المكين» فالذى فعله إبراهيم هو إقامة « المكين» أى المبنى نفسه ، أما المكان فقد كان معروفاً .

ولنفترض أنه جاء سيل على الكعبة وهدمها فإلى أى شىء سنصلى ؟ إلى أن نقيم المكين . إذن : عملية البناء هذه للمكان ، وليست للمكين .

ويقول الحق عن البيت الحرام :

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ...(٩٧)﴾ [آل عمران]

وآيات جمع ، وبينات جمع ، ولم يأت من الآيات البينات إلا « مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ » :

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ... (٩٧)﴾ [آل عمران]

أى : أن « مقام إبراهيم » هو مجموع الآيات البينات ؛ لأن الله قد أمره أن يرفع القواعد ، وكان لا بد أن يبحث عن الإمكانات التى تساعده فى الرفع ؛ لأنه لو رفعها على قدر ما تطول يده لما بلغ طول الكعبة فوق مستوى ما تطوله اليدان ؛ لذلك فكر سيدنا إبراهيم وتدبر وجاء بحجر ليقف فوقه ليطيل فى ارتفاع جدران الكعبة ، وهذا من دلائل أنه ينفذ التكليف بعشق ، وعلى أتم وجه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفى هذا آيات واضحة على أن الإنسان

إذا كلف أمراً فعليه ألا ينفذ الأمر لينهى التكليف بأية طريقة ، ولكن عليه أن يؤدى ما يكلف به بعشق ، ويحاول أن يزيد فيه ، وبذلك يؤدى «الفرض» والزائد على الفرض وهو «النافلة» .

ونحن هنا فى قضية الاستغفار ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

وهنا وقفة توضح لنا طبع سيدنا إبراهيم كأواه حليم ، والأواه هو الذى يكثر التوجع والتأوه على نفسه مخافة من الله ، وعلى الناس إن رأى منهم معصية ، فيحدث نفسه بما سوف يقع عليهم من عذاب ، إنه يشغل نفسه بأمر غيره ، فهذه فطرته ، وهو أواه لأن التأوه لون من السلوى يجعلها الله فى بعض عباده للتسرية عن عباد له آخرين [١] .

ولذلك يقول الشاعر :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسلّيك [٢] أو يتوجع

أى : أنه إذا أصابت الإنسان مصيبة فهو يشكو إلى صاحب المروءة ، فإما أن يساعده فى مواجهة المشكلة ، وإما أن يواسيه ليحمل عنه المصيبة ، بأن يتأوه له ويشاركه فى تعبه لمصيبته ، وهذا التأوه علامة رقة الرأفة وشفافية الرحمة فى النفس البشرية .

فإبراهيم ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ ، وهذا طبع فيه يسلكه مع كل الناس ، فما بالك إن كان لقريب له ؟ لا بد إذن أن يكثر من التأوه ، وخصوصاً إن كان الأمر يتعلق بأبيه ، ومع ذلك أراد الله أن يضع طبع إبراهيم عليه السلام فى التأوه

(١) ومن معانى الأوّاه أيضا : كثير الدعاء والتضرُّع إلى الله موقناً بالإجابة . انظر اللسان (مادة : أوه) .
(٢) يسلّيك : يكشف عنك همَّك .

فى موضعه الصحيح ، ولكن الله أوضح له : إياك أن تستغفر لأبيك ولا شأن لك به ، فالمسألة ليست فى الطبع ، ولكن فى رب الطبع الذى أمر بذلك.

وهنا قضية هامة أحب أن تصفى بين مدارس العلم والعلماء فى العالم كله ؛ لأنها مسألة تسبب الكثير من المشاكل ، وتثار فيها أقضية كثيرة .

لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ألا يستغفر لأبيه ،بعد أن تبين له أنه عدو لله ، وما دام والد إبراهيم قد وصف بهذه الصفة وأنه عدو لله ومحمد ﷺ من نسل إبراهيم إذن : فلماذا يقول الرسول : « إننى خيار من خيار من خيار » ؟

ولو فهمنا قول الحق :إن أبا إبراهيم عدو لله ، ففى هذا نقض لحديث رسول الله ، وما دام أبو إبراهيم كان عدوا لله وتبرأ منه وقال له الحق : لا تستغفر . إذن :ففى نسبه ﷺ أحد أعداء الله ، وفى ذلك نقض لقوله ﷺ : « خيار من خيار من خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » .

ولهذا نريد أن نصفى هذه المسألة تصفية علماء ، لا تصفية غوغاء ، ولنسأل من هو الأب ؟ الأب هو من نَسَلَكَ وأنجبك ، أو نسل من نسلك . إذن : فهناك أب مباشر و أبوه يعتبر أبا لك أيضاً إلى أن تنتهى لآدم ، هذا هو معنى كلمة « الأب» كما نعرفه ، لكننا نجد أن القرآن قد تعرض لها بشكل أعمق كثيراً من فهمنا التقليدى ، وأغنى السور بالتعرض لهذه المادة « سورة يوسف » ؛ لأن مادة « الأب» جاءت ثمانى وعشرين مرة خلال هذه السورة ، فمثلاً تجد فى أوائل سورة يوسف،قول يوسف عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ... ④﴾

[يوسف]

وبعد ذلك جاءت السورة بأن الله سوف يجتبى يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث:

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ [1] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ... ⦗٦⦘﴾ [يوسف]

والأبوان المقصودان هنا هما إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، ثم قال الحق من بعد ذلك: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ [2] إِلَىٰ أَبِينَا .. ⦗٨⦘﴾

[يوسف]

ثم جاء قوله الحق على لسان إخوة يوسف : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ⦗٨⦘﴾ [يوسف]

وفى نفس السورة يقول الحق عن إخوة يوسف :

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ... ⦗٩⦘﴾ [يوسف]

ثم يمهد إخوة يوسف للتخلص منه ، فيبدأون بالحوار مع الأب :

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ⦗١١⦘ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⦗١٢⦘﴾ [يوسف]

وبعد أن ألقوه فى غيابة الجب [3] ، وعادوا إلى والدهم :

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ⦗١٦⦘﴾ [يوسف]

---

(١) يجتبيك : يختارك ويصطفيك لنبوته. وتأويل الأحاديث: هو تفسير الأحلام والرؤى.
(٢) يقصدون أخا يوسف من أمه راحيل، واسمه بنيامين .
(٣) الجُبّ: البئر. وغيابته : أى: قعره، فى منهبط منه.

وكانت هذه هي المرة الثامنة في ذكر كلمة أب في سورة يوسف ، ثم تأتي التاسعة :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ... ⦗١٧⦘ ﴾[يوسف]

ثم تدور أحداث القصة إلى أن دخل سيدنا يوسف السجن ، وقابل هناك اثنين من المسجونين وأخبراه أنهما يريانه من المحسنين ، وأن عندهما رؤى يريدان منه أن يفسرها لهما فقال لهما :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ... ⦗٣٧⦘ ﴾ [يوسف]

وينسب ذلك الفضل إلى الحق سبحانه فيقول :

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ⦗٣٧⦘ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... ⦗٣٨⦘ ﴾ [يوسف]

وهكذا ذكر اسم ثلاثة من آبائه : إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام.

ثم خرج يوسف من السجن [١] وتولى أمر تنظيم اقتصاد مصر ، وجاء إخوته للتجارة فعرفهم ، ويحكي القرآن عن لقائه بهم دون أن يعرفوه ، وقال :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ...⦗٥٩⦘ ﴾ [يوسف]

وقال أيضاً :

(١) رفض يوسف عليه السلام الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تظهر براءته مما نسب إليه تجاه امرأة العزيز ؛ لذلك قال لرسول الملك : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ⦗٥٠⦘ ﴾[يوسف] وتم له ما أراد، فقالت النسوة : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ وقالت امرأة العزيز : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ⦗٥١⦘ ﴾ [يوسف] .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ[(١)] ... ﴿٦١﴾﴾ [يوسف]

ثم عادوا إلى أبيهم يرجونه أن يسمح لهم باصطحاب أخيهم الأصغر معهم[(٢)]، وسمح لهم يعقوب عليه السلام باصطحابه بعد أن آتوه موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحيط بهم أمر خارج عن إرادتهم ، ونزلوا مصر وطلبوا الميرة[(٣)] .

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ[(٤)] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ[(٥)] إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ[(٦)] ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ... ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف]

قالوا : ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يوسف]

قال يوسف :

﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ... ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف]

---

(١) المراودة : المراجعة وطلب الإذن منه برفق .

(٢) وذلك أنهم قالوا لأبيهم : ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف : ٦٥] قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٤) : «وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل رجل حمل بعير» .

(٣) الميرة : هي الطعام يمتاره الإنسان أي يجلبه .

(٤) السقاية : هو إناء من فضة كانوا يكيلون الطعام به، وربما شربوا به . ويسمى أيضاً الصواع .

(٥) العير : القافلة ، والعير القوم معهم دوابهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف : ٧٠] أي : أيها القوم الراحلون .

(٦) زعيم : كفيل .

ويأمرهم سيدنا يوسف عليه السلام :

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾ [يوسف]

ويعودون إلى أبيهم الذى يعاتبهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا... (٨٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم أن يعودوا مرة أخرى قائلاً :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ... (٨٧) ﴾ [يوسف]

وعندما عرفهم يوسف بنفسه وعلم منهم أن والدهم قد صار أعمى قال لهم : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا (٩٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم يوسف عليه السلام بأن يأتوا بأهلهم أجمعين. ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ[1] (٩٤) ﴾ [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ[2] وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ... (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وما يهمنا فى كل ذلك آيتان اثنتان : الأولى هى قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ [يوسف]

---

(١) تفنّدون : أى تكذبونى وتتهمونى بالخرف وضعف الرأى والعقل .

(٢) العرش : سرير الملك .

وإسحق هو أبو يعقوب ، وإبراهيم هو الأب الثالث. وحين قال يوسف:

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ [1] آبَائِي ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

و« آبائى » جمع أب . وعندما أراد أن يذكر الأعلام من آبائه قال :

﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

ويعقوب هو أبو يوسف ، وإسحق أبو يعقوب ، وإبراهيم أبو إسحق ، إذن : فإبراهيم أب ، وإسحق أب ، ويعقوب أب . وهكذا نرى أن كلمة «الأب» تطلق على الجد ، وآباء الجد إلى آدم . وإذا نظرت فى سورة البقرة تجد قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ... (١٣٣) ﴾ [البقرة]

ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وهكذا يكون إبراهيم أباً ، وإسماعيل أباً ، وإسحق أباً ، ولكن إسماعيل أخ لإسحق ، إذن فقد أطلق الأب هنا وأريد به العم ، وهكذا ترى أنه إذا ألحق بكلمة « أب» اسم معين هو المقصود بها ، فالمعنى ينصرف إما إلى الجد وإما إلى العم ، وإن جاءت من غير تحديد الاسم ، فهى تنصرف إلى الأب المباشر فقط .

والحق يقول فى شأن إبراهيم مع أبيه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ...(٧٤) ﴾ [الأنعام]

---

(١) المِلَّة : الشريعة والدين.

لقد ذكر الحق هنا اسم الأب وحدده بـ« آزر »[1] ولو أنه أبوه حقيقة لما قال آزر ، مثلما يأتيك إنسان ليسأل : أين أبوك ؟ هنا نفهم أن السؤال ينصرف إلى الأب المباشر ، لكن إذا قال : هل أبوك محمد هنا ؟ فهذا التحديد قد ينصرف إلى العم .

إذن : قول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يبين لنا أن آزر ليس هو الصُّلب الذى انحدر منه رسول الله ، ولكنه عمه ، وبذلك نحل الإشكال واللغز الذى حير الكثيرين.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ[2] حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة]

و« الحليم» هو خلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً[3] عن الذنب .

وقد شغل صحابة رسول الله ﷺ بإخوانهم المؤمنين ، الذين ماتوا قبل أن تكتمل عندهم أحكام الإسلام ؛ لأن منهج الإسلام نزل فى « ثلاثة وعشرين عاماً» . وليس من المفروض فيمن آمن أن يأتى بكل أحكام

(١) آزر: اسم أعجمى. وقد اختُلف فى اسم أبى إبراهيم، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه «تارح» وبعضهم قال: «تارخ» وبعضهم قال: إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً. والبعض قال: إن تارح اسم وآزر لقب. وقيل: إن آزر هو اسم للصنم الذى كانوا يعبدونه. انظر فى هذا: تفسير القرطبى (٣/ ٢٥٤٤)، وابن كثير (٢/ ١٤٩) وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤)، ولسان العرب (مادة أزر) وقصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار (ص ٩٣ - ٩٦)

(٢) أواه : كثير الدعاء والتأوه خوفاً من الله.

(٣) الحلم: الصبر، و«الحليم» صيغة مبالغة من الحلم، أى : كثير الحلم، و«الصبور» صيغة مبالغة من الصبر أى : كثير الصبر، و«الصفُوح» صيغة مبالغة من الصفح أى: كثير الصفح، والصفح : هو العفو والمغفرة.

الإسلام عند بداية إيمانه ، بل قد يكون قد آمن فقط بالشهادة ، فاعتبر مسلماً ، ومثال هذا مخيريق اليهودى [1] الذى لم يصل ركعة واحدة فى الإسلام ؛ لأن الحرب قامت بعد إسلامه مباشرة ، وقال : مالى كله لمحمد وسأذهب لأحارب معه ، وحارب فقتل ، وهكذا صار شهيداً . لأنه لم يمكث زمناً ينفذ فيه ما جاء به الإسلام قبل ذلك .

ومن باب أولى أن الذى مات قبل أن تتم أحكام الإسلام يعتبر مسلماً ، والذى مات مثلاً قبل أن تحرم الخمر تحريماً نهائياً ، أيقال : إنه عاصٍ أو كافر؟ لا ، إنه مسلم ، والذى مات قبل أن يعلم أن القبلة قد حولت منْ بيت المقدس إلى الكعبة يعتبر مسلماً [2] وشاء الحق أن يبين للمسلمين ألا يحزنوا على هؤلاء ، فنزل الوحى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة]

وهذا يوضح ما نعرفه فى عرف التقنين البشرى أنه لا جريمة إلا بنص ، ولا عقوبة إلا بتشريع ، فنحن لا نعاقب إلا بعد تحديد الفعل الذى يعاقب عليه ، وأن يكون النص المحدد للجريمة والعقوبة سابقاً على الفعل .

إذن : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . والذى لم يبلغه

(١) مخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضر ، أسلم واستشهد فى «أحد» ، وكان عالماً . وقد أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى ﷺ صدقة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٦/ ٧٣) . وسيرة النبى (٨٨/٣) .

(٢) عن ابن عباس قال : لما وُجِّه النبى ﷺ إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] وأخرجه الترمذى فى سننه (٥/ ٢٠٨) وقال : حسن صحيح . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٦٩) وصححه وأقره الذهبى .
قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١/ ٩٨) : «الذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس» وذكر أسماءهم ، ثم قال : «فهؤلاء العشرة متفق عليهم» .

النص ؛ لأنه مات قبل أن يوجد النص ؛ لا نأخذه بالعقاب ؛ لأنه لا رجعية في القانون السماوى ، إنما الرجعية فقط عند البشر؛ ولذلك نجد الحق يقول في كثير من الآيات : ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ... (٢٢)﴾ [النساء]

إذن : فلا تحزنوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه . فإسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام ؛ فإن أدوها استووا بالذى يؤديها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها ؛ لذلك جاء قوله الحق :

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)﴾

وهنا الهداية هى هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون ؛ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أى : ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى التزام أمر الله ونهيه ، فإذا وافقوا البيان هداهم هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

ومادة الـ(م.ل.ك) يأتى منها « مالك » ، و« مَلك» ، و«ملْك» ، ومنها «مُلْك» ، ومنها « ملكوت» ، و« المِلْك » هو ما تملكه أنت فى حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معك ويملك غيرك ، فهذا هو المَلك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أى الذى يدخل فى سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون فى الأمور الظاهرة . . . وأما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية .

مثل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ... (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وساعة ترى « تاء المبالغة » فى مثل « رهبوت» ، و«عظموت » تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنعك أن تستغفر لآبائك ، وأنك إن قاطعتهم فذلك يخل بوجودك فى الحياة ؛ لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون فى ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شيء ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شيء سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ؛ فقال :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة : ﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ ﴾ و ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ ﴾ ، وإيتاء المـلك فى أعراف الناس خير ، ونزعه فى أعراف الناس

شر ، وإعزاز الناس خير ، وإذلالهم شر ، ولم يقل الله بيده :« الخير والشر» . وإنما قال فى كُلّ : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

إذن : فحين يؤتى الله إنساناً مُلْكاً ؛ نقول : هذا خير وعليك أن تستغله فى الخير . وحينما ينزع الله منه الملك نقول له : لقد طغيت وخفف الله عنك جبروت الطغيان ، فنزعه الله منك فهذا خير لك . وإن أعزك الله ، فقد يعذبك حقاً ، وإن أذلهم الله ، فالمقصود ألا يطغوا أو يتجبروا . إذن : فكلها خير .

﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ساعة تجد ملكاً عضوضاً [(١)] ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضوض قد أخذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بل هو عطاء من الله . ولو أن المملوك راعى الله فى كل أموره لرقق عليه قلب مالكه . ولذلك يقول لنا فى الحديث القدسى :« أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدى ، فإن العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة ، وإن هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن أطيعونى أعطفهم عليكم» .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن نعرف أن كل حادث له حكمة [(٢)] فى الوجود .

---

(١) الملك العضوض : هو ملك شديد فيه ظلم وقهر . وهى من صيغ المبالغة . والعضوض : جمع عِضٍّ وهو الخبيث الشرس . وسُمِّى هذا الملك عضوضاً كأنه يعض الناس .

(٢) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١٢٩) ﴾ [البقرة] .

وإن رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم[1] ، فاعلم أن الله قد جاء به ليربى به المملوكين ، وسبحانه لا يربى الأشرار بالأخيار ؛ لأن الأخيار لا يعرفون كيف يربون[2] ؛ وقلوبهم تمتلىء بالرحمة ؛ ولذلك يعلمنا سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ... (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

والخيِّر لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجرى كل شيء بعلم الله ؛ لأنه سبحانه له ملك السموات والأرض وهو الذى يحيى ويميت ، فإياك أن تُفْتَن فى غير خالقك أبداً ؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمى نفسه من أغيار الله فى كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمن من الله وليّاً له ونصيراً .

وبعد أن قال لنا سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يأتى لنا بالأمر الذى يظهر فيه أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . وقال بعض العلماء فى قوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أنه سبحانه « يحيى الجماد » ، و« يميت الحيوان» ؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هى الحس والحركة التى نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « . . . إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » . قطعة من حديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) ، وصححه ووافقه الذهبى ، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا ، وفى بعضهم خلاف .

(٢) التربية هنا بمعنى التأديب والزجر ، وهذا ملمح دقيق جداً ، فالله سبحانه يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح ، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور] .

هى ما أودعه الله فى كل ذرة فى الكون ، مما تؤدى به مهمتها ، ففى ذرة الرمل حياة ، والجبل فيه حياة ، وكل شىء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ... (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالحياة مقابلها الهلاك ، وفى آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت . فإذا قال الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ... (٨٨) ﴾ [القصص]

إذن : فكل شىء قبل أن يكون هالكاً كان حيّاً ، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمى الهائل فى المجاهر الدقيقة تكشفت لنا حركة وحس كائنات كنا لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التى ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن : فكل شىء فى الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أى حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة .

بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بالخلق ، وهى أيضا رحمة بالمذنب ؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان فى المعاصى بمجرد انحرافه مرة واحدة، وإذا استشرى فى المعاصى فالمجتمع كله يشقى به ، إذن : فمشروعية التوبة نفسها رحمة بمن يفعل الذنب ، وبمن يقع عليه الذنب ، وقبول التوبة رحمة أخرى بمن عمل الذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، وبعد أن يتوبوا ، يقبل الله التوبة .

والحق هنا يقول : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وعطف [1] على النبى ﷺ ﴿ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ ، فأى شىء فعله رسول الله ﷺ حتى يقول الله : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟! ونقول : ألم يقل الحق سبحانه له :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... (٤٣) ﴾ [التوبة]

فحين جاء بعض المنافقين واستأذنوا النبى ﷺ فى التخلف عن الغزوة [2] ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً [3] ... (٤٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) العطف هو إشراك شيئين أو أكثر فى حكم ما .

(٢) هى غزوة تبوك ، وهى آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وقد كانت فى شهر رجب عام تسع من الهجرة ، وقد كانت فى شدة حر وجدب وعُسْر بينما المدينة بها الظلال والأشجار وقد طابت الثمار ؛ ولذلك كانت امتحاناً عسيراً زلزل القلوب ، وتراوحت ردود الأفعال تجاه الاستجابة للنفس على حسب الإيمان الذى يسكن القلوب .

(٣) خبالاً : المراد : أصابوكم بالفساد والضعف والاضطراب وعدم الثبات أمام الأعداء .

إذن : فرسول الله ﷺ كان بالفطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب ، ولكن الحق سبحانه لا يريد أن يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً .

وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله ﷺ ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المنافقين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام بها ضد صالح نفسه ، ومثال هذا من حياتنا ولله المثل الأعلى : أنت إذا رأيت ولدك يذاكر عشرين ساعة فى اليوم ؛ فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تطفىء مصباح الحجرة ، وتقول له : « قم لتنام» . وأنت فى هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل فى منهجٍ وأسلوب عملٍ يرهق به نفسه[1] .

وحين سمح النبى ﷺ لقوم أن يتخلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب أم مع مصلحة الحرب ؟ إنهم لو اشتركوا فى الحرب لكثر ثوابهم حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأى عمل ، إذن : فإذنه ﷺ لهم بالتخلف هو تصعيب للأمر على نفسه .

ولذلك نجد أن كل عتب على نبى الله ، إنما كان عتباً لصالحه لا عليه فسبحانه يقول له :

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...۝١﴾ [التحريم]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين. فقال : ما هذا؟ قالوا : لزينب. تصلى. فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال : «حلّوه. ليصل أحدكم نشاطه. فإذا كسل أو فتر قعد». أخرجه البخارى فى صحيحه (١١٥٠)، ومسلم فى صحيحه (٧٨٤).

والنبى ﷺ لم يحل ما حرم الله بل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكأن الحق يسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبى ﷺ ، وأيضاً حين جاء ابن أم مكتوم [1] الأعمى يسأل رسول الله فى أمر من أمور الدين ، وكان ذلك فى حضور صناديد قريش [2] ، فالتفت ﷺ إلى الصناديد وهم كافرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم ؛ فنزل القول الحق :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ②﴾ [عبس]

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيمانى ، ولن يجادل مثلما يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار الرسول ﷺ الأمر الصعب الذى يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله ؟ . إذن : العتب هنا لصالح محمد ﷺ ، وحين يقول الحق له :

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ㊸﴾ [التوبة]

ثم جاء هنا فى الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول ﷺ نفسه ؛ فلا تحرُّج [3] .

---

(١) المشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال : عمرو . أما أمه أم مكتوم فهى عاتكة بنت عبد الله . أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين . استخلفه رسول الله على المدينة ١٣ مرة أثناء خروجه فى الغزوات . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٢٨٥).

(٢) صناديد قريش : عظماؤهم ، وعلية القوم فيهم . وهم هنا : عقبة بن ربيعة والحكم بن هشام (أبو جهل) والعباس بن عبد المطلب ، وقد كان يرجو إسلامهم . وقد أتى ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى : وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . فجعل النبى يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : «أترى بما أقول بأساً ؟» فيقول : لا . ففى هذا أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ②﴾[عبس] أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٣١) وقال : حديث غريب . وابن حبان (١٧٦٩ - موارد الظمآن) .

(٣) وقد قال بعض العلماء : إنما ذُكر النبى ﷺ فى التوبة ؛ لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٠٤) .

وهذه المسائل التى حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ويزيغ : يميل ، أى : يترك ميدان المعركة كله ؛ لأنها كانت معركة فى ساعة العسرة ، ومعنى العسرة الضيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والجو حارٌّ ، وليس عندهم رواحل [١] كافية ، فكل عشرة كان معهم بعير واحد ، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثانى ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذى توالد فيه الدود.

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها بفيه يستحلبها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً ، وهكذا إلى أن تصير على النواة ، وكان الشعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : «حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير » . كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب فى العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة.

إذن : فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة ، ولذلك تنبأ بالخواطر التى كانت فى نواياهم ومنهم أيضاً من همّ ألا يذهب، ثم حدثته نفسه بأن يذهب مثل أبى خيثمة [٢] الذى بقى من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرت عشرة أيام ، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين [٣] ، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء ، وقد

(١) رواحل : جمع راحلة ، وهى كل بعير قادر على مشقات السفر ، سواء كان ذكراً أو أنثى .
(٢) هو عبد الله بن خيثمة الأنصارى السالمى ، شهد أحداً ، وبقى إلى خلافة يزيد بن معاوية . انظر الإصابة (٧/ ٥٣) وانظر (٤/ ٦٣) .
(٣) العريش : شىء يشبه الخيمة تكون داخل البستان مظللة بسعف النخيل .

طَهَتْ كل منهما طعاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة ، والثمر المدلّى ، فمسّته نفحة من صفاء النفس ؛ فقال : "رسول الله فى الفيح - أى الحرارة الشديدة جداً - والريح ، والقُرّ والبرد ، وأنا هنا فى ظل بارد ، وطعام مطهوّ ، وامرأتين حسناوين ، وعريش وثير [1] ، والله ما ذلك بالنَّصَفة لك يارسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلّمته المرأتان ، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله ﷺ. فقال صحابة رسول الله : يارسول الله إنّا نرى شبح رجل مُقْبل . فنظر رسول الله ﷺ وقال : «كن أبا خيثمة » [2] ، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى قوله الحق :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ [3] مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾ [التوبة]

وفى واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله أيضا على آخرين اعترفوا بذنوبهم ، فتاب الحق عليهم حين قال :

---

(١) وثير : ناعم . يقصد الوسائد والفُرش التى فرشت داخل العريش .
النَّصَفَة : الإنصاف والعدل . زمام الراحلة : الحبل الذى يُقاد به البعير .

(٢) قصة أبى خيثمة وردت تامة فى السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق (٤/ ٥٢٠) وذكر ابن هشام أبياتا لأبى خيثمة فى هذا :

لَمَّا رأيتُ الناسَ فى الدِّين نَافَقُوا ... أتيتُ التى كانتْ أعفَّ وأكْرَمَا
وَبَايعتُ باليُمْنى يَدى لمُحَمَّد ... فَلَمْ أكْتَسبْ إثْمًا ولم أغْشَ محرمَا
تركْتُ خَضيبًا فى العريش وَصرمةً ... صَفَايا كرامًا بُسْرُهَا قَد تَحمَّمَا
وكنتُ إذا شَكَّ المنافقُ أسْمَحَتْ ... إلى الدين نَفْسى شَطرَهُ حيثُ يَمَّمَا

خضيباً : المرأة قد خضبت يدَيها بالحناء . صرمة : مجموعة من النخل .
صفايا : قد تحملت بالتمر . بسرها : التمر قبل أن يطيب .
تحمما : أى : أخذ فى الإرطاب ؛ فاسود .
وقد ورد قوله ﷺ : « كن أباخيثمة» فى حديث توبة كعب بن مالك عند مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

(٣) العسرة : من النفقة والظهر والزاد والماء .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ...(١٠٦) ﴾ [التوبة]

وما دام الله قد قال: ﴿مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى : ما بَتّ الله سبحانه فى أمرهم بشىء ؛ فلا بد من الانتظار إلى أن يأتى أمر الله ، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتى قول الله . وتاب أيضاً على الثلاثة [1] الذين خلفوا ، فى قوله سبحانه :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨) ﴾

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا . إنما (خُلِّفُوا) معناها : لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر فى غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار.

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذى يجلس فيه ، ويسبب له الضيق، لعل الضيق ينفك [١]. ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق فى كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها، فلم يجد واحد منهم مكاناً يذهب إليه ، وهذا معناه أن الكرب الذى يحيطهم قد عَمَّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه .

والحق يقول عنهم : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أى : ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتوانى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فكان كعب بن مالك [٢] يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوَّر [٣] عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه.

(١) ينفك : يتخلص منه الإنسان . ومنه « فك الرقبة » أى: تخليصها من العبودية والرق . قال ابن الأعرابى: فك فلان أى خلص وأريح من الشىء . [لسان العرب - مادة : فكك] .

(٢) كان كعب بن مالك يجالد الناس ويخرج للناس يتلمس منهم أن يكلموه ، أما صاحباه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فقد لزما بيتيهما ، أما هو فيقول : « كنت آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى » .

(٣) تسوّر : تسلّق الحائط حتى علاه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص] .

Bibliotheca Alexandrina
0635162

NC
7 122
7
3115t
69
991

٢٠٠ قرشا

مطابع أخبار اليوم التجارية
هليوبوليس